واحدة تكفي

قصة

بقلم مصطفى ابو النصر

دقت الساعة تسع دقات كئيبة ، فرفعت بصري اليها في ضيق ، وراودتني رغبة في تحطيمها . ولكنني اتجهت الى مكتبي ، فجلست امامه ، ونقلت بصري عليه في حيرة ، فوقع على علبة السجاير ، فأشعلت واحدة ، ورحت انفث دخانها ... ودارت في رأسي افكار : لماذا اعيش ؟.. هل الحب كل شيء ... الفشل ، النجاح ... امنيات لم تتحقق... الفشل ، انه الصورة الصادقة لحياتي... جمعت من المال الكثير...ولكن ما فائدته ؟ قطعاً ان المال ليس كل شيء... السعادة كلمة لا معنى لها...الانتحار ... الموت ... ليس بعد الموت حياة... كيف تكون ان كانت ؟! لا شك انها خير مما نحن فيه... ربما ... كلا... لا اعلم ...

وظلت الافكار تتضارب في رأسي ، وانا في شبه ذهول عام ، لم افق منه إلا حينما لسعتني السيجارة ، فتنبهت الى نفسي واطفأتها . واحسست ان يدي فارغتان ، فاردت ان افعل شيئاً ، ففتحت الدرج وانا لا ادري لماذا افعل ؟ فوقع بصري على مسدس ملقى في الدرج ، وكأنه ينعي حظه، رصاصة واحدة لم اطلقها منه ابداً منذ ان اشتريته ، لماذا ؟ وفيم اذن كان شراؤه ... حقاً انني لغبي ... واقتربت يداي منه وقد اصابتهما رعشة خفيفة ، وامسكت به واخذت اقلبه في كفي ... ان لونه الاسود يعجبني ، قد يكون ذلك لأن حياتي نفسها سوداء ... الفرق بيني وبينه ، انه ملآن وانا فارغ . وارتسمت على شفتي ابتسامة ، ولست ادري ما كان معناها !! ابتسامة بلا معنى ... ثم اخرجت خزانته وافرغتها فاذا فيها تسع رصاصات ألقيت بها في الدرج ما عدا واحدة ابقيتها في المسدس قائلا : واحدة تكفي . واغلقت الدرج في عنف ، فتخيلت انني لطمته ، ووضعت المسدس على المكتب ، وقمت من جلستي متجهاً الى الشاهة ، فأخذت سترتي وارتديتها ، ثم القيت على نفسي نظرة سريعة في المرآة ... فأطلقت ضحكة عالية سخيفة ، احسست انني قد اخترقت بها ظلام الحي جميعاً ، وتناولت المسدس ووضعته في جيبي الخلفي ، ولكنني شعرت عند ذلك ان مشكلة اخرى تواجهني ، لا اعلم ما هي ، بيد اني لم اقف لأفكر في مشكلة لا أدريها ، وانما اتجهت نحو الباب ففتحته فوجدت القاعة التي امامي مظلمة معتمة ، فتذكرت ان حجرتي مضيئة ، فامتدت يدي الى زر الكهرباء وضغطت عليه فساد الظلام المكان ، الا من ضوء خافت تسرب كاللص من اخر المنزل . واغلقت باب الحجرة ، وسرت في القاعة المظلمة وانا احس في نفسي بألم دفين ... وشعرت الخادم بوقع قدميّ ، فهبت من جلستها وراحت تحوم حولي ... على شفتيها الكلام ، ولكنها لم تستطع ان تنبس بحرف . لا شك انها ادركت ما اعانيه من ألم ... ويبدو انها ارادت ان تنزح هذا الصمت الجاثم بيننا ، فقالت بصوت خافت كله تردد : هل سيتأخر سيدي في الخارج ؟ ... فرمقتها بنظرة لم تلمحها هي لنور بصرها الخافت ، ولما لم تلق اجابة ما ، تحركت في بطء وانزوت في ركن القاعة مطرقة لا تنبس ، ولا تستطيع ان تبصر .

اما انا فقد تصرفت كشخص مجنون ، درت حول نفسي عدة مرات ، وشككت في وجودي ، فرحت اتحسس وجهي ، ولم استطع اكثر من ذلك ، فخرجت عن صمتي وصحت قائلا : الهي ... اكاد اجن ... واسرعت خارجاً من المنزل .

خرجت الى الطريق ، فوقفت حائراً اتلفت في هذا الظلام المطبق، ولولا هذه الذبالات الضئيلة المنبعثة من مصابيح الطريق ، لقتلت نفسي ، انها الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يبعث في نفوسنا الامل مرة ثانية . ثم اتجهت الى اليسار ورحت انقل الخطى في بطء شديد ، وانا اشعر في نفسي انني آتي شيئاً مؤلماً ، ورفعت بصري ، بعد ان كنت مطرقاً ، انظر الى الشبابيك المغلقة التي ينبعث من خلفها الضوء ، وراودتني فكرة وامنية ، ولكنها جنونيتان ... فكرت في ان اطير، وتمنيت لو صار جسدي كالخيال والروح يخترق الحيطان دون ان يشعر بي احد . لقد انتابني نوع من التطفل عجيب، اريد ان اعرف كل ما يدور في داخل هذه البيوت ...

هل يعيشون مثلي في فراغ مميت ؟.. لا اظن والا لكانوا جميعاً يسيرون الآن في الطريق ... ان الحياة خلف هذه الجدران ... لا شك انها جميلة ممتعة وإلا لما استطاع احدهم ان يقضي دقيقة واحدة في منزله . كيف امكنهم الحصول على هذه الحياة ؟ يا لي من غبي ! اهذا سؤال ؟ ان هذه الحياة الناعمة السخية..لا يمكن الا ان تكون موهوبة .. فليس لانسان ان يصنع حياته.

وفجأة لاحت من بعيد عربة فخمة، جرحت هذا الظلام بضوئها الشديد ، ومضت مسرعة من جانبي ، وكان يبدو على سائقها انه سعيد ، وسألت نفسي : ترى الى اين هو ذاهب ؟... لا بد ان حفلة راقصة في انتظاره . وعاد السكون الى الطريق مرة اخرى بعد ان اختفت العربة بضوئها وضوضائها.. وتركتني استمع الى وقع اقدامي الحزينة .. ووجدتني اتحسس موضع المسدس ، وهممت باخراجه من جيبي ، غير انني لم افعل ، لم اجد سبباً لذلك، وكدت الطم نفسي .. ولكن هذا جنون .. وكانت اسئلة كثيرة تتكتل امامي ، ولكن السؤال الكبير الذي ظهر واضحاً وملحاً هو : ومن ادراك انك لست مجنوناً ؟ ! حقاً من ادراني انني لست كذلك .. وكاد التفكير يجرفني مرة اخرى بصورة قد تكون اضخم وابشع من الاولى ولكن عربة كالسابقة لاحت ووقفت امام قصر فخم واطلق صاحبها آلة التنبيه في صوت منغم لطيف .. عندئذ توقفت عن السير وانزويت في ركن امين ، واخذت احدق النظر الى العربة وراكبها .. وكان وجهه يبدو تحت الضوء الخافت ، كانسان قضى حياته في الجنة وهو ذاهب الآن الى جنة اخرى يتم فيها نعيمه.. وانتبهت الى ضوء لاح في نافذة واطل منها شبح امرأة قالت في صوت هادىء سعيد : حمدي.. حالاً .. واختفت من النافذة .. ثم انطفأ النور . واضاءت الحديقة .. وخرجت امرأة فاتنة كالحب .. وسألها : تأخرت عليك ؟! قالت كلا .. واطلقت ضحكة جميلة ، لست ادري سببها، واختفت بجانبه في العربة ومضت حتى ابتلعها الظلام في نهاية الطريق. وعاودت السير ولكني احسست ان شيئاً فقد مني وتحسست المسدس فاذا هو قابع في مكانه .. ترى لماذا احضرته ؟ ! وتملكني هذا الشعور بالضياع فرحت ابحث في جيوبي جميعاً عن شيء فقدته ، ولكن لم اجده .. اه انني لم افقد شيئاً سوى الحياة .. حياتي ليست حياة..وعاد السؤال السخيف يبدو امامي مرة اخرى..لماذا اعيش ؟.

كانت خطواتي البطيئة ، وطريقة سيري الضال ، تثير انتباه بعض المارة ، كنت ارقبهم بعين خفية واحس بالحاجز الضخم الذي يفصلني عنهم ..

الذي يفصلني عنهم؛ واردت ان افعل شيئاً، فنظرت في ساعة يدي فلم اتبين الوقت، فأخرجت عود ثقاب، وأشعلته، ولكن الهواء اطفأه قبل ان اعرف الزمن.. فلعنت نفسي..وعاودت السير وأنا اسأل نفسي : الى اين انا ذاهب ؟! ولم اجد الاجابة طبعاً ... واقتربت من مصباح الطريق ، فرفعت يدي ونظرت في الساعة .. كم ! ! العاشرة والنصف ! ! ولم اصدق .. فاتهمت الساعة .. ساعة ونصف قضيتهما سيراً في هذا الطريق ! ! ؟ شيء لا يعقل .. وظهر احد السابلة فاقتربت منه وسألته في شيء من الاضطراب : كم الساعة من فضلك ؟ فرمقني بنظرة احسست انها اخترقت جسمي ... وكدت انسحب لولا ان قال في برود جعلني اذوب في نفسي خجلاً : العاشرة والنصف .. فتراجعت وأنا اتمتم : اشكرك اشكرك ... إذن فساعتي مضبوطة .. ماذا اتيت في هذه الساعة والنصف ؟ ! لم افعل شيئاً وإنما كنت اسير.. ألم اتوقف! حقاً لا ادري .. نعم توقفت مرة او مرتين .. ولكن كم من الزمن قضيته واقفاً ؟. لا بد انني محموم، ورفعت يدي الى وجهي وتحسست جبهتي، فاذا هي باردة كالموت ... خير لي ان اعود .

وتوقفت حائراً ، ورحت اتلفت حولي ، وكان الضيق قد بلغ بي حداً كبيراً ، واقتنعت تماماً اني اعيش بلا فائدة .. واعجبني الفكرة .. نهاية غامضة جميلة .. لا شك في هذا ، وابتسمت وارتفعت يدي تتحسس المسدس .. واخرجته ، والقيت عليه نظرة معجب مزهو وتمتمت قائلاً : هنا يكمن الحل .. واخرجت خزانته ونظرت الى الرصاصة بشيء من الارتياح ، ثم وضعت الخزانة مكانها ، ورحت اقلبه في يدي .. وألقيت نظرة الى الزناد .. ضغطة واحدة على هذا المكان تنقلني الى عالم آخر ... لست ادري كيف يكون .. لا بد انها حياة جميلة ، وإلا لعاد احد الموتى على الاقل ..

وفجأة تخلل سمعي صوت اقدام منظمة الايقاع تقترب ، فرفعت نظري فلمحت في الظلام المطبق شبحاً متجهاً نحوي.. يجب ان اتخلص منه .. كيف ؟ واقترب مني الشبح شيئاً فشيئاً ، فلمحت ازرار سترته الصفراء ، فأدركت انه شرطي ..لم احاول التفكير ، وماذا استطيع ان اصنع .. سيظن انني مقبل على جريمة .. سأقضي الليلة في السجن .. لماذا لا اقتله قبل ان ... ووجدته واقفاً امامي ، فارتعشت يدي ودرت على عقبي وتظاهرت بوضع يدي في جيبي وأخفيت المسدس .. الحمد لله لم يره . وسألني قائلاً :

– ماذا تصنع هنا ؟

فرسمت على شفتي ابتسامة باهتة وانا اقول :

– لا شيء .. اتمشى .

فقال في تعجب :

– في هذا الظلام ! !

فقلت : سأعود .. سأعود حالاً .

وهممت بالسير ولكنه شك في كلامي فمد يده اليّ . امسك بذراعي وهو يقول :

– قلت .. الى اين انت ذاهب ؟

– الى البيت .

– اين تسكن ؟

– هنا في آخر الشارع .

وأشرت بيدي الى نهاية الطريق..فتركني ومضى دون ان ينبس بكلمة.. وتذكرت المسدس وشعرت بثقله في جيبي .. اريد الخلاص منه .. اين .. اين .. هنا . واخرجته وانحنيت على الارض ووضعته في جانب الطريق ، وتلفت حولي وانا اشعر بضربات قلبي المتوالية ، وكان الطريق خالياً ، واخذت طريقي الى المنزل .

كنت اسير بخطوات مسرعة ، وانا لا افكر في شيء ما .. كان عقلي عبارة عن مجموعة من الافكار المفزعة المخيفة .. ووصلت الى المنزل وكان الظلام مطبقاً ، فأشعلت عود ثقاب لأضع قدمي على اول درج من السلم .. ثم صعدت فيه والظلام يكاد يمزق عروق عيني ، ووقفت امام باب الشقة ، وكان ضوء باهت منبعثاً منها .. وضربت الباب بقدمي .. لماذا ؟ .. لا ادري! وما لبث ان فتح الباب وظهرت الخادم بوجهها الهادىء .. فألقيت عليها نظرة ولم انبس بحرف ، ورمقتني بنظرة لم افهم معناها ، ووقفت في وسط القاعة، وأحسست بالحيرة تقطع قلبي فسألت نفسي : لماذا انا حيران ؟ .. ولكن لم اعرف الاجابة وانما سمعت صوت الخادم وهي تسألني قائلة : هل أعد لك العشاء ؟

واعتقدت انها تدخلت فيما لا يعنيها فكظمت غيظي ولم القِ اليها جواباً ، وانما سرت الى حجرتي وانا اكاد انفجر ضيقاً .. وقبل ان ادخل وكنت ممسكاً بأكرة الباب التفت الى الخادم ، وفي فمي شتائم ، وهممت ان اقول لها « انت من الغد مطرودة » ، ولكن حين نظرت الى وجهها ، فقرأت عليه سيماء الحزن ، ورأيت في عينيها الوانيتين شعاع المحبة والحيرة والرغبة في ارضائي ، او خيل الي انها الرغبة في مساعدتي على الخروج من ازمتي ، تحولت الشتائم في فمي انفجاراً احسسته يمحو من صدري كل ضيق وكل توتر ، فصحت بها :

– هل تظلين طويلاً واقفة هكذا كالجدار ؟ ألم تعدي العشاء بعد ؟

القاهرة **مصطفى ابو النصر**

صدر حديثاً

الجزء التاسع من سلسلة

كنوز القصص الانساني العالمي

« حيـــاتي »

قصة رجل من الريف

للقاص الروسي انطون تشيخوف

اروع ما كتبه هذا القاص العظيم في حقل الرواية . انها قصة رجل من الريف، رجل من الاشراف ضاق ذرعاً بحياة النبلاء فانخرط في صفوف العمال، وراح يكسب رزقه بعرق جبينه ، واجداً ضروباً من الشقاء ليس يصبر عليها انسان ، ثم انتصر آخر الامر على نفسه وعلى مجتمعه .

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرة وربع **دار العلم للملايين**